

الرسوم الدانماركية... أزمات القيم والهوية وآفاق الفعل الشعبي (تقرير تركيبي) دراسة في تأصيل المفاهيم والمناهج

د/سمير بودينار - المغرب

أستاذ جامعي، باحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية،
مدير مركز الدراسات الإنسانية والاجتماعية بمدينة وجدة

ملخص البحث:

قامت صحيفة «يولاندز بوسطن» الدانماركية بنشر رسوم كاريكاتورية للنبي صلى الله عليه وسلم، مقترنة بتعليق لرئيس تحريرها عبّر فيه عن دهشته واستنكاره إزاء القداسة التي يحيط بها المسلمون نبيهم. وكما هو الأمر دائمًا عندما يستشعر المسلمون إهانة متمعمة لرسولهم، انتفض العالم الإسلامي بالغضب. في الخليج والسعودية، ووصل الأمر حد إحراق البضائع الدانماركية في المخازن، ومن القاهرة إلى أنقرة وإسلام آباد وجاكرتا، سارت مظاهرات الاحتجاج. على إثر ذلك طالبت الرابطة الإسلامية في الدانمارك بتقديم اعتذار، بموازاة مع تظاهرة نظمتها أمام مقر الصحيفة، إلا أن الحكومة الدانماركية تعاملت مع الحدث بلا مبالاة.

ولا يخفى الدور المتعظم للفعل الشعبي، فلقد ظهرت الدعوات إلى المقاطعة الاقتصادية من خلال وسائل الإعلام المختلفة، فيما بدأت أسواق كبرى على امتداد العالم العربي والإسلامي بسحب المنتجات الدانماركية، وقد آتت المقاطعة أكلها؛ ففوق إحصائيات موثقة أدت حملة مقاطعة المنتجات الدانماركية في العالم الإسلامي إلى خسارة الدانمارك ما يعادل ١٣٤ مليون يورو خلال خمسة أشهر.

تعتبر أولى المشكلات المتصلة بقضية الرسوم في التسمية التي استحدثت لها، ثم أشاعتها وسائط الإعلام، وهي «الرسوم المسيئة»، فكيف يمكن الإساءة إلى شخصية بشرية مكتملة ناجزة كشخصية النبي صلى الله عليه وسلم؟!، وكيف يمكن أن تكون الرسوم إساءة إلى «عقيدة» المسلمين، وهي كينونة ناجزة ومحصنة في ذاتها؟!

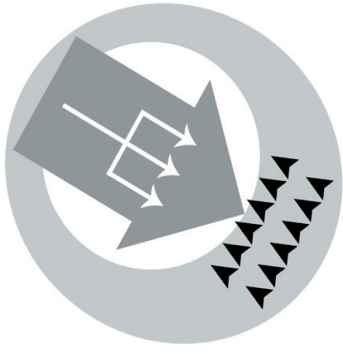
ولعل تحليل الحدث وآثاره يمدنا بعدد وفير من الدروس؛ كالحاجة إلى مزيد من التأصيل، ومزيد بناء في مجال فقه الاحتجاج الحضاري، مرورًا بأهمية فكرة «الجهاد المدني»، التي زادت الأزمة وضوحًا لتزايد الحاجة إليه اليوم، وانتهاءً بأزمة الأقليات والجاليات المسلمة في شتى بقاع العالم، وما تبينه مثل هذه الأحداث من عدم معرفة الآخر بنا في مساحات عريضة، وبمقدساتنا الدينية، كأمة ذات سمات وخصائص مميزة، سواء في عالم المسلمين، أو في مجتمعات المسلمين المستجدة في المهاجر المختلفة عبر العالم. ويبدو أنه ليس من خيار آخر لمواجهة التحديات المتلاحقة التي تمس المسلمين وغيرهم من قوى المادية اللإنسانية، والاستبداد والهيمنة المتعددة الأوجه، سوى مسار الفعل الشعبي العام والمؤثر، والذي يستمد قوته وثباته أساسًا من عقيدة الإنسان وقيمه وإرادته.

أفكار ومقتطفات

- كان لنشر الصور الكاريكاتورية وقع الصاعقة على المسلمين الذين يعيشون في الدانمارك، تلك المملكة الاسكندنافية الدستورية التي تقبع في قلب أوروبا، والتي لا تتجاوز مساحتها (٤٣, ٠٩٤) كم مربعًا، ويبلغ عدد سكانها (٥, ٤) ملايين فرد، منهم ١٨٠ ألف مسلم يشكلون ٣٪ من الشعب، ولهم تمثيلهم بالبرلمان من خلال ثلاثة نواب.
- رفعت بعض المنظمات الإسلامية في الدانمارك قضية ضد الصحيفة التي تبنت الإساءة البذيئة للنبي محمد عليه الصلاة والسلام، ولكن المدعي العام رفض القضية؛ معتبرًا أن نشر الرسوم الكاريكاتورية تم في إطار حرية التعبير التي يحميها القانون، واختص رئيس تحرير صحيفة «يولاندز بوسطن» بالقرار.
- في ١٥ / ٣ / ٢٠٠٦، أصدر المدعي العام الدانماركي حكمًا نهائيًا بشأن قضية الرسوم المسيئة. ورغم «إقراره» بأن «الرسوم الكاريكاتورية المعنية يمكن اعتبارها مسيئة، أو يمكن أن تُفهم باعتبارها تعبيرًا عن الإسلاموفوبيا، فإنها لا تعتبر خرقًا للقانون الدانماركي بأي حال من الأحوال».
- بعد ثلاثة أشهر من التجاهل والصمت، وفي أعقاب التفجيرات التي حدثت في لندن، علّق على قضية الرسوم الكاريكاتورية المفوض العدلي بالاتحاد الأوروبي فرانكو فراتيني، قائلًا: إن نشرها لم يكن تصرفًا حكيمًا؛ باعتبار أنه من شأن ذلك أن يشيع الكراهية، ويشجع على التطرف في أوروبا.
- لم تبد في الأفق أدنى استجابة لتلك الجهود فلا هيئة تحرير الصحيفة بادرت لنشر أي من الردود أو التصويبات، أو تقديم اعتذار، ولا الحكومة الدانماركية أخذت ردود الفعل الإسلامية مأخذ الجد.
- كما هو الأمر دائمًا عندما يستشعر المسلمون إهانة متعمدة لرسولهم، انتفض العالم الإسلامي بالغضب. في الخليج والسعودية، ووصل الأمر حد إحراق البضائع الدانماركية في المخازن، ومن القاهرة إلى أنقرة وإسلام آباد وجاكرتا، سارت مظاهرات الاحتجاج. وفي دمشق وبيروت، أشعلت النار في مباني السفارات والقنصليات الدانماركية والنرويجية. وفي غزة دمرت المراكز الثقافية التابعة للدول التي شاركت صحافتها في الحملة على النبي الكريم.
- الواقع أنه من غير المعروف كيف يمكن الإساءة إلى شخصية بشرية مكتملة ناجزة، شأن النبي الكريم، ليس فحسب على مستوى موقعها في التاريخ، بل على مستوى موقعها منه وفيه إلى اليوم؟!!
- من غير المفهوم كيف يمكن أن تكون الرسوم إساءة إلى «عقيدة» المسلمين، والعقيدة كينونة ناجزة ومحصنة في ذاتها أولاً، قبل أن تكون في منزلة القداسة لدى أصحابها، محصنة برصيد من الرمزية والإجلال بلا حدود؟!!

ملف التقرير - المقاومة

- الصورة التي قُدِّمَ على أساسها شخص النبي صلى الله عليه وسلم، والإسلام بالتالي كانت صورة مَنْ خرج من مجتمع بدوي ليتزوج النساء، وينشر بحد السيف كتاباً ادَّعاه لنفسه، منتحلاً عن كتب الديانات السابقة، ساعياً إلى تلبية غريزة كامنة قوامها اللذة الجسدية، والعنف الدموي.
- أكدت أرقام بيانات اقتصادية أن المقاطعة كَبَدت الدانمارك، حتى شهر مايو ٢٠٠٥ فقط، خسائر فادحة، وباتت قطاعاتها مهددة بفقدان أكثر من ١١ ألف وظيفة، وقد أشار تقرير بنك «يسكا» إلى أن استمرار المقاطعة لمدة عام يعني خسارة القطاعات الإنتاجية الغذائية والزراعية نحو (٣٢٠) مليون يورو.
- اعترفت المتحدثة باسم شركة (آرلا) بأن نحو ٣٠٠ مؤسسة أو شركة في الدول العربية والإسلامية قاطعت منتجات (آرلا) من بينها الجبن والزبدة والحليب.
- وفق إحصائيات نشرت يوم ٨ / ٩ / ٢٠٠٦ فقد أدت حملة مقاطعة المنتجات الدانماركية في العالم الإسلامي؛ بسبب نشر الرسوم المسيئة لنبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام إلى خسارة مليار كورونة دانماركية، أي ما يعادل ١٣٤ مليون يورو خلال خمسة أشهر.
- هبطت الصادرات الدانماركية، خاصة إلى المملكة العربية السعودية بنسبة (-٤٠٪) وإلى إيران بنسبة (-٤٧٪)، وهما على التوالي السوق الأول والسوق الثالث عبر العالم الإسلامي للشركات الدانماركية.
- وسجلت أكبر التراجعات في دول ليبيا (-٨٨٪)، وسوريا (-٤١٪)، والسودان (-٥٥٪)، واليمن (-٦٢٪). وكانت أشد الشركات مصاباً هي شركات التغذية.
- سلاح المقاطعة من أنجح الأسلحة وأشدّها فتكاً بالأعداء في هذا الوقت، وهذا واجب الأفراد والهيئات والحكومات سواء بسواء، كل يقوم بواجبه وبقدر ما يستطيع، وعلينا أن نركز على البضائع الصهيونية الصنع، أو الأمريكية الخالصة التي لا يدخل في شراكتها أحد من المسلمين، ولا يترتب عليها ضرر أكبر للمسلمين .
- اتضح أن مشكلة الهوية الإسلامية في أوروبا كانت حاضرة في الأزمة بشكل واضح، حتى قبل انفجار قضية الرسوم الكاريكاتورية؛ حيث كانت «واشنطن تايمز» الليكودية تنشر حلقات تحذّر من خطر «دولة إسلامية في أوروبا» ركزت فيها على البوسنة، فهي «كوريدور» القاعدة إلى أوروبا، والمقاتلون البوسنيون المسلمون انضموا في العراق إلى «الإرهابيين الإسلاموفاشست في حملتهم البربرية على القوات الأمريكية».
- لا بد من معرفة الآخر بنا في مساحات عريضة، وبمقدستنا الدينية، وقدرته على استيعاب خصائصنا المجتمعية وهويتنا الثقافية، كأمة ذات سمات وخصائص مميّزة، سواء في عالم المسلمين، أو في مجتمعات المسلمين المستجدة في المهاجر المختلفة عبر العالم.



الرسوم الدانماركية... أزمات القيم والهوية

وآفاق الفعل الشعبي

(تقرير تركيب)

دراسة في تأصيل المفاهيم والمناهج

د/سمير بودينار - المغرب

أستاذ جامعي، باحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية،
مدير مركز الدراسات الإنسانية والاجتماعية بمدينة وجدة

يُنجز الرسوم التوضيحية للكتاب؛ لأن معظم الرسامين تخوفوا من إثارة حفيظة المسلمين. عندها قام الكاتب بالاشتراك مع الصحيفة بعمل مسابقة لاكتشاف رسامين لديهم الجرأة لتحدي مشاعر المسلمين. ويبدو أن الرسامين الذين استجابوا كانوا يجمعون بين الجهل بالإسلام والحقد على أهله.

في الغرب أولاً سارعت صحف ومؤسسات إعلامية غربية أخرى إلى التضامن مع الصحيفة الدانماركية بإعادة نشر الرسوم.

بل وصل الأمر حد توجيه المستشارية الألمانية دعوة إلى مساندة الدانمارك والتضامن معها، ثم أخذت أصداء الانتهاك الذي قامت به الصحيفة الدانماركية لحرمة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) في التفاعل عبر العالم الإسلامي كله.

أولاً: كان لنشر الصور الكاريكاتورية وقع الصاعقة على المسلمين الذين يعيشون في الدانمارك، تلك المملكة الاسكندنافية الدستورية التي تقبع في قلب أوروبا، والتي لا تتجاوز مساحتها (٤٣, ٠٩٤) كم مربعاً، ويبلغ عدد سكانها (٥, ٤) ملايين فرد، منهم ١٨٠ ألف مسلم، يشكلون ٣٪ من الشعب، ولهم تمثيلهم بالبرلمان من خلال ثلاثة نواب،

في القول عن الرسوم وتدايها:

بدأت حلقات الحدث وتدايها في الثلاثين من شهر سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٥، حين نشرت صحيفة «يولاندز بوسطن Jyllands-Posten»، وهي من أوسع الصحف اليومية انتشاراً في الدانمارك، ١٢ رسماً كاريكاتورياً للنبي محمد عليه الصلاة والسلام، ومع الرسوم نشرت الصحيفة تعليقاً لرئيس تحريرها عبّر فيه عن دهشته واستنكاره إزاء القداسة التي يحيط بها المسلمون نبيهم، الأمر الذي اعتبره ضرباً من «الهراء الكامن وراء جنون العظمة»، ودعا الرجل في تعليقه إلى ممارسة الجرأة في كسر ذلك «التابو»، عن طريق فضح ما أسماه «التاريخ المظلم» لنبي الإسلام، وتقديمه إلى الرأي العام في صورته الحقيقية (التي عبّرت عن قبحها في زعمه الرسوم المنشورة). وحسب المعلومات التي رُشّحت فإن الفكرة جاءت بداية من كاتب دانماركي كان يُعد كتاباً للأطفال عن حياة الرسول عليه الصلاة والسلام، فلم يجد رسماً

ملف التقرير - المقاومة

وحين علمت الأمانة العامة لمنظمة المؤتمر الإسلامي بالموضوع، وجَّه الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو الأمين العام للمنظمة خطابات إلى رئيس وزراء الدانمارك والمسؤولين في الاتحاد الأوروبي ومنظمة الأمن والتعاون الأوروبي، دعاهم فيها إلى التدخل لوقف حملة الكراهية ضد المسلمين، واتخاذ موقف حازم إزاء الإهانات التي توجَّه ضد نبينهم، وقد اعتبر بيان منظمة المؤتمر الإسلامي في الموضوع «حالة الرسوم الكاريكاتورية التجديفية المسيئة التي نشرت في صحيفة يولاندز بوستن الدانماركية مثلاً واضحاً على

تحرك سفراء الدول الإسلامية في جنيف، وقدموا شكوى إلى مفوضية حقوق الإنسان في العاصمة السويسرية، اعتبروا فيها موقف الصحيفة الدنماركية محرصاً على العنصرية والكراهية للمسلمين

ذلك. ففي ١٥ مارس ٢٠٠٦، أصدر المدعي العام الدانماركي حكماً نهائياً بشأن قضية الرسوم المسيئة. ورغم «إقراره» بأن «الرسوم الكاريكاتورية المعنية يمكن اعتبارها مسيئة، أو يمكن أن تُفهم باعتبارها تعبيراً عن الإسلاموفوبيا، فإنها لا تعتبر خرقاً للقانون الدانماركي بأيِّ حال من الأحوال». إن الاعتبارات التي برَّر بها المدعي العام الدانماركي حكمه تُعد تعبيراً عن مركب التفوق العرقي. كما ربط البيان القضية بمظاهر كراهية الأجانب، والتي تعتبر المصدر المعاصر الرئيسي للتمييز والصراع. وإن مكافحة هذه الآفة يستلزم من المجتمع الدولي انتباهاً فورياً وتحركاً عاجلاً؛ باعتبارها أولى الأولويات».

وكان محور الردود التي تلقاها - خصوصاً من رئيس الوزراء الدانماركي - أن قضية حرية التعبير تمثل ركناً أساسياً في الديمقراطية الدانماركية، الأمر الذي اعتبر رفضاً لاتخاذ موقف إزاء الحملة، في الوقت ذاته تحرك سفراء الدول الإسلامية في جنيف، وقدموا شكوى إلى مفوضية حقوق الإنسان في العاصمة السويسرية، اعتبروا فيها موقف الصحيفة الدانماركية محرصاً على

ويُعد الإسلام الدين الثاني في البلاد، بعد المسيحية البروتستانتية التي يدين بها ٨٠٪ من السكان.

في نوفمبر ٢٠٠٥، طالبت الرابطة الإسلامية في الدانمارك، والتي رأت في الرسوم إهانة لها، بتقديم اعتذار، بموازاة مع تظاهرة نظمتها أمام مقر الصحيفة اليومية؛ غير أن المواقف بدأت في التصلب.

كما أن وفداً عن الرابطة السالفة الذكر هياً ملفاً كاملاً وشاملاً عن القضية، وسارع إلى استنفار الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي، ثم رفعت بعض

المنظمات الإسلامية في الدانمارك قضية ضد الصحيفة التي تبنت الإساءة البذيئة للنبي محمد عليه الصلاة والسلام، ولكن المدعي العام رفض القضية؛ معتبراً أن نشر الرسوم الكاريكاتورية تم في إطار حرية التعبير التي يحميها القانون، واختص رئيس تحرير صحيفة «يولاندز بوستن» بالقرار، فكان صدور القرار عاملاً مشجعاً لصحيفة مسيحية محافظة أخرى في النرويج «مجازينت» على إعادة نشر الرسوم الكاريكاتورية الاثني عشر، ومن ثم الترويج لحملة السخرية البذيئة من نبي المسلمين ودينهم.

إثر ذلك عقد ١١ دبلوماسياً من ممثلي الدول الإسلامية في كوبنهاجن اجتماعاً بحثوا فيه الأمر، وقرروا مطالبة الصحيفة بالاعتذار للمسلمين عن إهانة نبينهم، ولكن رئيس تحريرها رفض الاعتذار، فطلبوا مقابلة رئيس الوزراء الدانماركي لإبلاغه باحتجاجهم على نشر الصور، فرفض مقابلتهم بدوره، وأبلغهم من مكتبه بأن الأمر يتعلق بحرية التعبير التي لا تدخل فيها الحكومة، وقيل لهم: إن بوسعهم اللجوء إلى القضاء إذا أرادوا.

أوغلو رسالة بهذا المعنى إلى الجهة المعنية في كوبنهاجن، أبلغها فيها بأن منظمة المؤتمر الإسلامي طلبت من كل الأعضاء مقاطعة المشروع؛ احتجاجاً على موقف بلادهم الرسمي من إهانة نبي الإسلام. أخيراً، في أعقاب كل تلك التطورات، تطرق رئيس وزراء الدانمارك إلى الموضوع في بيان رأس السنة الميلادية، الذي بثه التلفزيون قال فيه: إن حكومته تدين أيّ تعبير أو تصرف يسيء إلى مشاعر أية جماعة من الناس، استناداً إلى خلفياتهم الدينية أو العرقية، وبهذه الإشارة المخففة، تصور الرسميون في كوبنهاجن أنه تمت تسوية الأمر، في الوقت الذي بدا فيه لكل ذي حس سليم أن الجرح أكبر وأعمق بكثير من أن يُداوى بكلمات عامة وخجولة من ذلك القبيل.

وبعد مُضي عدة شهور على نشر الرسوم، بُدلت خلالها جهود واسعة لمحاصرة الموضوع، سواء من قبل منظمات الجالية الإسلامية في الدانمارك، أو من الحكومات العربية والإسلامية أو من الجامعة العربية، لم تبد في الأفق أدنى استجابة لتلك الجهود فلا هيئة تحرير الصحيفة بادرت لنشر أيّ من الردود أو التصويبات، أو تقديم اعتذار، ولا الحكومة الدانماركية أخذت ردود الفعل الإسلامية مأخذ الجد. فقد رفضت استقبال السفراء العرب والمسلمين في كوبنهاجن والاستماع لشكواهم. باسم حرية الرأي والتعبير، كما اصطفت أغلب النخب السياسية والإعلامية المتنفذة في أوروبا إلى جانب الموقف الرسمي الدانماركي؛ إلا في استثناءات نادرة (تعرض وزير الخارجية البريطاني السابق جاك سترو، لهجوم كاسح في الإعلام البريطاني؛ لأنه أدان الرسوم الكاريكاتورية، ووصف سلوكه بالجبان والمستخذي).

وكما هو الأمر دائماً عندما يستشعر المسلمون إهانة متعمدة لرسولهم، انتفض العالم الإسلامي بالغضب. في الخليج والسعودية، ووصل الأمر حد إحراق البضائع الدانماركية في المخازن، ومن القاهرة

العنصرية والكراهية للمسلمين، فقررت المفوضية تحري الأمر، وإعداد تقرير ضافٍ عن الموضوع قُدّم يوم ٢٤/١/٢٠٠٦.

أدرجت المسألة ضمن جدول أعمال القمة الإسلامية التي عقدت في مكة في السابع من شهر ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٥، وبناء على ذلك عبّرت إحدى توصيات المؤتمر عن القلق إزاء الحملات الإعلامية المسيئة إلى الإسلام ونبي المسلمين، وأشارت إلى مسؤولية جميع الحكومات عن ضمان احترام الديانات المختلفة، وعدم جواز التذرع بحرية التعبير للإساءة إلى الأديان والمقدسات.

بعد ثلاثة أشهر من التجاهل والصمت، وفي أعقاب التفجيرات التي حدثت في لندن، علّق على قضية الرسوم الكاريكاتورية المفوض العدلي بالاتحاد الأوروبي فرانكو فراتيني، قائلاً: إن نشرها لم يكن تصرفاً حكيمًا؛ باعتبار أنه من شأن ذلك أن يُشيع الكراهية، ويشجع على التطرف في أوروبا.

وبينما يتم تبادل الرسائل بين الأطراف المختلفة، انتقد ٢٢ سفيراً دانماركياً - أغلبهم عملوا في البلاد العربية - موقف حكومة بلادهم من المسألة، وقام وفد من مسلمي الدانمارك يمثلون ٢١ مركزاً إسلامياً ومنظمة بزيارة إلى القاهرة، التقوا خلالها شيخ الأزهر والأمين العام لجامعة الدول العربية، وانتقد وزراء خارجية الدول العربية سلبية الحكومة الدانماركية إزاء الإهانة التي لحقت بنبي الإسلام، ووجد الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي أنه لا مفر من اتخاذ موقف عملي يوصل رسالة الاحتجاج والغضب إلى حكومة الدانمارك، التي تعاملت مع الحدث بقدر لافِت للنظر من عدم الاكتراث واللامبالاة، ولذلك قرر إعلان مقاطعة المنظمة لمشروع دانماركي، يتمثل في إقامة معرض كبير تحت عنوان «انطباعات عن الشرق الأوسط» تغطي حكومة كوبنهاجن جزءاً من تكاليفه، ويفترض أن تسهم الدول العربية (الخليجية) في تغطية بقية النفقات، وبعث الدكتور أكمل الدين

في منزلة القداسة لدى أصحابها، محصنة برصيد من الرمزية والإجلال بلا حدود؟! يبدو أن أزمة الرسوم الدانماركية في كل مستوى من مستويات قراءتها تأتي إلا أن تحيل إلى أزمة الجسم والقيم والثقافة الصادرة عنه، ذلك الذي يسعى إلى المسّ بما لا يمكن المسّ به والإساءة إلى مُتأبّ منيع ضد أيّ محاولة للتقويض أو الامتهان، مما يثير في النهاية الحيرة حول هذا الجسم نفسه لا حول الهدف الذي يُقصد المسّ به، وكأننا هنا نعيد قراءة قول الشاعر القديم:

يا ناطح الجبل العالي لتكلمه

أشفق على الرأس لا تُشفق على الجبل

وإذا كان بإمكاننا، ونحن بصدد قراءة الصورة المكملة الأبعاد فلا شك أننا سوف نلاحظ جانباً من الإساءة فعلاً، لكنه لا يمس الرمز أو المعتقد، ولكنه يتجه إلى أصحاب المعتقد، ممن يحملون الرمز والفكر، ولعله لهذا السبب كان التجاوب الإسلامي مع الأزمة سريعاً، وعبر مختلف المؤسسات الممثلة للمسلمين (أدان بيان مكة، الصادر عن قادة العالم الإسلامي في قمتهم الأخيرة، الرسوم وطالب بالتوقف عن تكرار مثل هذا الفعل).

إن الجانب الأكبر من فعل الإساءة هو ذلك الذي ارتد إلى أصحاب الفعل أنفسهم، غير أن أصحاب المعتقد الذي تمت محاولة المسّ به لم يسلموا بدورهم من جانب تلك الإساءة التي تبدّت موجهة لهم مباشرة، من خلال مهاجمة مادية مباشرة وصريحة لنيّ يعتقدون اعتقاداً مطلقاً بمنزلته وكرامته، ومكانته فيما يؤمنون به من قيم الوحي المُنزّل.

في أزمة القيم:

ليست محاولات الإساءة إلى النبي الكريم في الغرب من خلال صورته في الآداب والفنون شيئاً حديثاً ولا طارئاً؛ إذ نعرف اليوم أن الصورة النمطية التي تسعى إلى تركيزها جانب من ذلك الإنتاج منذ خمسة قرون كاملة على الأقل، كانت صورة تهتم بسمتين أساسيتين

إلى أنقرة وإسلام آباد وجاكرتا، سارت مظاهرات الاحتجاج. وفي دمشق وبيروت، أشعلت النار في مباني السفارات والقنصليات الدانماركية والنرويجية. وفي غزة دُمّرت المراكز الثقافية التابعة للدول التي شاركت صحافتها في الحملة على النبي الكريم. إلى جانب بيان «الدعوة للاحتجاج» الذي أصدره اتحاد علماء المسلمين، فقد سارعت عدة دول عربية إلى استدعاء سفرائها من العاصمة الدانماركية. وشجبت حكومات أوروبية، مثل الحكومتين البريطانية والفرنسية، الإهانات التي وُجّهت للمقدسات الإسلامية، وعملت على وضع مسافة بينها وبين الصحف والمؤسسات الإعلامية التي شاركت في الحملة ضد الإسلام والمسلمين، من خلال محاولة الإساءة لنيهم.

إساءة... لكن إلى من؟!

تبدّت أولى المشكلات المتصلة بقضية الرسوم في التسمية التي استُحدثت لها، ثم أشاعتها وسائط الإعلام والاتصال، وهي «الرسوم المسيئة» (البعض وصل إلى القول بأنها الرسوم المهينة للنبي صلى الله عليه وسلم)! والواقع أنه من غير المعروف كيف يمكن الإساءة إلى شخصية بشرية مكتملة ناجزة، شأن النبي الكريم؟! ليس فحسب على مستوى موقعها في التاريخ، بل على مستوى موقعها منه وفيه إلى اليوم؛ لأن سيرته البالغة الغنى والثراء مثّلت - بإجماع تاريخي نادر، وعبر أمثلة هائلة في الفكر والآداب العالمية - نموذجاً للمثل الأعلى الإنساني في كافة جوانبها، ولكن وربما كان هذا هو الأهم؛ لأنها نموذج انبنت عليه تجربة حضارية هائلة، بوصف تلك السيرة تمثلاً لقيم الوحي في مختلف أوجهه عبر قرون من الاجتماع والتاريخ الإنساني.

كما أنه من غير المفهوم: كيف يمكن أن تكون الرسوم إساءة إلى «عقيدة» المسلمين، والعقيدة كينونة ناجزة ومحصنة في ذاتها أولاً، قبل أن تكون

امتداد العالم العربي والإسلامي، كما في السعودية بسحب المنتجات الدانماركية، ومن بينها مثلاً أسواق «السعودي مارشيه» التي سحبت المنتجات الدانماركية من أسواقها، واستبدلت بها عبارة «نحن لا نبيع بضائع دانماركية»، و«كان يوجد هنا بضائع دانماركية»، وترافق ذلك مع تحذيرات شركات دانماركية من أن حملات المقاطعة لمنتجاتها بدأت تُؤتي أكلها؛ إذ حذرت مجموعة أرلا فودز - أكبر الشركات المصدرة - أن المنتجات الدانماركية مهددة بحملة المقاطعة، وصرح المتحدث باسم الشركة بأن أصحاب المحال التجارية يقومون بسحب منتجاتها

من أماكن العرض، والعزوف عن استيراد المزيد منها؛ لأن المستهلكين لا يريدون الشراء.

(تصدر المجموعة الدانماركية السويدية إلى السعودية سنوياً بما قيمته ملياري كورون دانماركي / ٢٦٨ مليون يورو معظمها منتجات الزبدة والألبان).

بينما أكدت أرقام بيانات اقتصادية أن المقاطعة كَبَدَت الدانمارك حتى شهر مايو ٢٠٠٥ فقط، خسائر فادحة، وباتت قطاعاتها مهددة بفقدان أكثر من ١١ ألف وظيفة، وقد أشار تقرير بنك «يسكا» إلى أن استمرار المقاطعة لمدة عام يعني خسارة القطاعات الإنتاجية الغذائية والزراعية نحو (٣٢٠) مليون يورو، وأكد المدير العام لشركة (أرلا) الدانماركية السويدية «بادر تيرغ»، أن المقاطعة الإسلامية ضربت عصب الشركة في الخليج، وقد تصل الخسائر اليومية في سوق السعودية وحده ١,٥ مليون دولار.

وقد نشرت الشركة الدانماركية للأغذية إعلانات في الصحف الصادرة في منطقة الشرق الأوسط تدعو إلى وقف مقاطعة الدول الإسلامية لمنتجاتها.

وقالت الشركة - التي تُعد واحدة من كبرى الشركات الأوروبية لمنتجات الألبان - إنها تواجه

هما: الشبقية والعنف، وإذا كانت هاتان السمتان تشيران إلى شخص النبي صلى الله عليه وسلم فإنها في الواقع استهدفت المضمون الشامل للرسالة التي حملها، والدين الذي قام على أساسها بأبعاده القيمة، وعبر أطواره التاريخية المختلفة.

فالصورة التي قُدِّمَ على أساسها شخص النبي صلى الله عليه وسلم، والإسلام بالتالي كانت صورة من خرج من مجتمع بدوي ليتزوج النساء، وينشر بحد السيف كتاباً ادّعه لنفسه، منتحلاً عن كتب الديانات السابقة، ساعياً إلى تلبية غريزة كامنة قوامها اللذة الجسدية، والعنف الدموي.

وقد حاول سلمان رشدي سابقاً أن يبني على هذه الفريضة صورة كاريكاتورية للرسول صلى الله عليه وسلم؛ باعتباره شخصية شريرة تدمن الكذب والتدليس، وزاد في الاستفزاز فاختر أسماء مثل الكعبة والحجاب لمواخير تقييم فيها

نساء يحملن أسماء وأوصاف زوجات النبي رضي الله عنهن، وذلك حين نشر روايته سيئة الصيت «آيات شيطانية» عام ١٩٨٩. وقد كان منطلق الكتاب، كما يظهر من عنوانه، مزاعم تناقلها المستشرقون طويلاً، بناء على روايات واهية، مفادها أن الرسول صلى الله عليه وسلم تلا على الناس بعض الآيات التي تُمَجِّد الأصنام، ثم تراجع عنها بعد ذلك بدعوى أن الشياطين تنزلت بها، في مخالفة لآية أخرى صريحة تقول: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (٢١٠) ﴿وَمَا يَلْبَغِيَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]

الدور الشعبي في أزمة الرسوم:

ظهرت الدعوات إلى المقاطعة الاقتصادية من خلال إعلانات في الصحف، ووسائل الإعلام، وعبر خطباء المساجد، فيما بدأت أسواق كبرى على

ملف التقرير - المقاومة

(-٨٨٪)، وسوريا (-٤١٪)، والسودان (-٥٥٪)، واليمن (-٦٢٪).

وكانت أشد الشركات مصابًا هي شركات التغذية، خاصة المنتجة للحليب مثل «أرلا فودز Arla Foods» مما أدى إلى انخفاض صادراتها طيلة تلك الفترة بنسبة ٣، ٢٥٪، خاصة إلى السعودية بنسبة (-٩٣٪). أما المنتجات الصناعية، التي لا يدرکہا المستهلكون، فقد تراجعت بنسبة ٤، ٧٪ حسب الإحصائيات المنشورة من قبل المعهد.

كل ذلك مع هامش حركة واسعة لأصحاب القرار السياسي الذين وجدوا في سمة «الشعبية والتلقائية» في حملة المقاطعة مجالاً لنفي أي قدرة لهم على التدخل في مسار الحملة، والتحلل بالتالي من أي ضغط سياسي (كما عبر عن ذلك وزير الخارجية السعودي مباشرة حينما سئل عن الموضوع، فقال: إن المقاطعة شعبية ولا علاقة لها بسياسة الدولة).

مشروعية المقاطعة كسلاح:

هناك ضوابط عامة تحدت عنها الكثير من العلماء والمفكرين المسلمين المعاصرين في موضوع العلاقة بين حق التعبير والحرية بشأنه، وبين الثوابت الدينية، وخلاصتها ما يقره المستشار طارق البشري في بحث له في هذا المجال من قواعد هي: أولاً: إن الحريات والرخص تقف عند حدود الحقوق وحدود الحُرْم والعصم.

ثانياً: إن حق الفرد يقف عند حدود حق الجماعة، وحق الجماعة المحدودة يقف عند حدود حق الجماعة الشاملة.

ثالثاً: إن النسبي من الحقوق والحريات والرخص، مما هو من شؤون البشر، يقف عند حدود المطلق من ثوابت الدين.

وسنختلف كثيراً عند إعمال هذه الضوابط، عند تبين وجه الصواب عن كل حالة معينة تجدد، وعند كل نازلة تنزل، ولكن التوافق على إعمال هذه

ضغوطاً من قبل المستهلكين لاتخاذ موقف ضد قيام صحيفة دانماركية بنشر رسوم كاريكاتورية مسيئة إلى شخصية نبي الإسلام.

واعترفت المتحدثة باسم الشركة بأن نحو ٣٠٠ مؤسسة أو شركة في الدول العربية والإسلامية قاطعت منتجات (أرلا) من بينها الجبن والزبدة والحليب. ووصف الخبير الدانماركي «كلاوس بيرن ينسن» الوضع في مجلة (سفن للتقنية ٥ / ٣ / ٢٠٠٦) بأنه تراجيدي إذا طال.

كان الجانب المهم في حملة المقاطعة، ما بدا من تأثيرات في مسار الأحداث بفعل الضغوط الاقتصادية. فوفق إحصائيات نُشرت يوم ٨ / ٩ / ٢٠٠٦ فقد أدت حملة مقاطعة المنتجات الدانماركية في العالم الإسلامي؛ بسبب نشر الرسوم المسيئة لنبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام، إلى خسارة مليار كورونة دانماركية، أي ما يعادل ١٣٤ مليون يورو خلال خمسة أشهر.

وننتج عن المقاطعة التي ابتدأت في ٢٠ / ١ / ٢٠٠٦ تراجع في الصادرات الدانماركية بنسبة ٥، ١٥٪ من فبراير إلى يونيو، وسجلت رقم ٥ مليارات في مقابل ٦ مليارات في الفترة نفسها من العام الماضي ٢٠٠٥، حسب نشرة المعهد الوطني للإحصاء.

وقال «بيتر طاجيسن» رئيس المستشارين في فدرالية الصناعات الدانماركية «دانسك أندوستري» لوكالة الأخبار «رويترز»: «إنه ليس هناك أدنى شك في أن هذه عواقب أزمة الرسوم شهدها بأعيننا، وإن الأمر جد بالنسبة للشركات التي أصابتها المقاطعة».

وهبطت الصادرات الدانماركية، خاصة إلى المملكة العربية السعودية بنسبة (-٤٠٪) وإلى إيران بنسبة (-٤٧٪)، وهما على التوالي السوق الأول والسوق الثالث عبر العالم الإسلامي للشركات الدانماركية.

وسجلت أكبر التراجعات في دول ليبيا

الضوابط، من شأنه أن يحل كثيرًا من الخلافات، ومن شأنه أن يتحول به الخلاف إلى اختلاف، ومن شأنه أن يوجد مشتركًا عامًا ترد الاختلافات في إطاره اختلافات فروع غالبًا.

وبناء عليه اعتبرت مسألة الرسوم مما هو خارج نطاق الحرية، بل من الاعتداء الذي يقابل بصورة المقاومة المشروعة بمختلف أوجهها، ومنها ما سُمي بالجهاد الاقتصادي، وفُصلت فيه الكثير من الفتاوى الشرعية، والتي ملخصها:

أن الجهاد الاقتصادي يأخذ حكم الجهاد بصفة عامة؛ فهو فريضة شرعية، وضرورة عقائدية، ولقد جاء مقترنًا بالنفس في العديد من الآيات، ومنها قول الله تعالى في وصف المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، وقوله تعالى في سورة الصف:

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَهْلِ أَدُلْكُمُ عَلَى يَدْرٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُعْتَمِدِينَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣]

ويؤكد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الجهاد بالمال بقوله: «من جهَّز غازيًا في سبيل الله فقد

غزا، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا» (أخرجه الشيخان). كما حذر النبي - صلى الله عليه وسلم - المتخاذلين المترددين عن التضحية من أجل نصره دين الله بالعذاب الشديد فقال صلى الله عليه وسلم: «من لم يغز ولم يجهز غازيًا أو يخلف غازيًا في أهله بخير أصابه الله تعالى بقارعة قبل يوم القيامة» (متفق عليه).

وإذا كان الكافرون والمشركون والصليبيون واليهود ينفقون أموالهم للاعتداء على الإسلام؛ فعلى المسلمين أن ينفقوا أموالهم في سبيل الله لحماية المسلمين. ولقد أشار الله إلى ذلك في سورة «الأنفال» فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]، وحث الله المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله، فقال تعالى: ﴿بِالْكَافِرِينَ ﴿١١﴾ يَكَادُ الزَّبَقُ يُخْطَفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوًا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٦١]

فسلاح المقاطعة من أنجح الأسلحة وأشدّها فتكًا بالأعداء في هذا الوقت، وهذا واجب الأفراد والهيئات والحكومات سواء بسواء، كلٌّ يقوم بواجبه ويقدر ما يستطيع، وعلينا أن نركز على البضائع الصهيونية الصنع، أو الأمريكية الخالصة التي لا يدخل في شراكتها أحد من المسلمين، ولا يترتب عليها ضرر أكبر للمسلمين، وعلى المشاركين لليهود والأمريكان أن يقاطعوهم أيضًا، ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل الواجب علينا مقاطعتهم ثقافيًا وتربويًا واجتماعيًا، ونعود لهويتنا الإسلامية وتقاليدنا الأصلية، حتى نتخلص من قيد هذا الاحتلال.

ويقول فضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي في حكم مقاطعة بضائع الدول المعتدية على المسلمين عمومًا والمحتلة لأرضهم: «فمما ثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة: أن الجهاد لتحرير أرض الإسلام ممن يغزوها ويحتلها من أعداء الإسلام واجب مُحْتَمٌّ، وفريضة مقدسة، على أهل البلاد المغزوة أولاً، ثم على المسلمين من حولهم إذا عجزوا عن مقاومتهم، حتى يشمل المسلمين كافة.

سلاح المقاطعة من أنجح الأسلحة وأشدّها فتكًا بالأعداء في هذا الوقت، وهذا واجب الأفراد والهيئات والحكومات سواء بسواء، كلٌّ يقوم بواجبه ويقدر ما يستطيع

من حقنا.. إن بعض من تحدث من الدانماركيين قال: «المسلمون لا ينتجون ونحن نتج فكيف يستغنون عنا؟» ورد: «والله نستطيع أن نستغني عنكم، ببدايل من الشرق، من الصين، من اليابان، من كوريا، من ماليزيا وغيرها، ونستغني عنكم بما لدى بعضنا، وبالتقليل والتزهد، ولو اضطرنا هذا ولم نجد إلا أن نصوم ونحامي حمى رسولنا صلى الله عليه وسلم لصمنا وجعنا».

تصويب وتصحيح السلبات في حملة النصر:

عقب اندلاع الأزمة الأخيرة حول رسوم الكاريكاتور المهينة لرموز الإسلام في الصحيفة الدانماركية «يولندز بوستن»، وما أعقبه من احتجاجات؛ كان من بينها حرق العلم الدانماركي والمطالبة بمقاطعة المنتجات الدانماركية، طالب رئيس الوزراء الدانماركي الدول العربية بإدانة حرق العلم الدانماركي، بينما هدّد المفوض التجاري في السوق الأوروبية «بيتر ماندلسون» برفع شكوى إلى منظمة التجارة العالمية ضد الدول التي تحرض على مقاطعة البضائع الدانماركية.

وقد كان لافتاً أن بيان منظمة المؤتمر الإسلامي (جدة ٩/٢/٢٠٠٦) حاول وضع إطار استراتيجي دائم لعمل النصر من خلال «حشد جهود كل المنظمات الإسلامية، والدعوية، وقادة المجتمعات والأقليات الإسلامية، والمنظمات

الإسلامية في الغرب وغيره للقيام بحملة واسعة النطاق لشرح حقائق الإسلام للعالم، وسيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وشمائله الكريمة العطرة. وهذا عمل يتطلب توافر الإرادة

القوية على نصره الإسلام، ونفساً طويلاً وأساليب حديثة مبتكرة، وتقنيات جديدة تتلاءم مع العقلية المختلفة للجهات المخاطبة».

كما اتضح أن مشكلة الهوية الإسلامية في أوروبا

إن الجهاد اليوم لهؤلاء الذين اغتصبوا أرضنا المقدسة، وشرّدوا أهلها من ديارهم، وسفكوا الدماء، وانتهكوا الحرمات، ودمروا البيوت، وأحرقوا المزارع، وعاثوا في الأرض فساداً.. هذا الجهاد هو فريضة الفرائض، وأول الواجبات على الأمة المسلمة في المشرق والمغرب. فالمسلمون يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، وهم أمة واحدة، جمعتهم وحدة العقيدة، ووحدة الشريعة، ووحدة القبلة، ووحدة الآلام والآمال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢] ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] وفي الحديث الشريف: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله»، ﴿وَإِنْ أَسْتَضْرُّوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ أَنْتَضِرُّ﴾ [الأنفال: ٧٢] ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]

«لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي رضي الله عنه، ثم خرج معتمرًا، فلما قدم مكة، قالوا: أصبوت يا ثمامة؟ فقال: لا، ولكنني اتبعْتُ خير الدين، دين محمد، ولا والله لا تصل إليكم حبة من اليمامة حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم خرج إلى اليمامة، فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئًا، فكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنك تأمر بصلة الرحم، وإنك قد قطعت أرحامنا، وقد قتلت الآباء بالسيف،

والأبناء بالجوع، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه أن يخلي بينهم وبين الحمل».

ثم دعا العلامة القرضاوي أثناء حملة النصر إلى مقاطعة البضائع الدانماركية بقوله: «ورأيي أن هذه الإساءات

مصدر للصراع والنزاع بين الأمم والشعوب، ونحن ندعو إلى السلام وإلى المحبة، لا إلى العداوة ولا إلى البغضاء، وندعوا إلى مقاطعة البضائع الدانماركية، ومن تضامن معها من الدول وأصر على هذا، وهذا

هدّد المفوض التجاري في السوق الأوروبية «بيتر ماندلسون» برفع شكوى إلى منظمة التجارة العالمية ضد الدول التي تحرض على مقاطعة البضائع الدانماركية

حواشي الموضوع، كالحاجة إلى مزيد من التأصيل ومزيد بناء في مجال فقه الاحتجاج الحضاري عند ضحايا الأزمة، خاصة في المرحلة الأولى منه، وما تبعها من انزلاقات مرفوضة شرعاً وخُلُقاً، وعقلاً وقانوناً. رغم أصالة هذا الفقه في المنظومة القيمية والفكرية التي ينتمي إليها أولئك الضحايا، انطلاقاً مما جاء من حديث القرآن الكريم عن الذين ﴿وَأَنْصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، وأولئك الوارد بشأنهم الاستثناء من وصف ﴿الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ﴾، لا اعتبار خاص بهم ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ [النساء: ١٤٨]. مروراً بأهمية فكرة «الجهاد المدني» التي زادت الأزمة وضوحاً لتزايد الحاجة إليه اليوم، ليس فحسب على مستوى القضايا المحلية، بل على صعيد الآثار المرجوة لهذا «الجهاد» في قضايا ومشكلات الإنسانية كلها، خاصة مع آثار العولمة الزاحفة على خصائص الإنسان في كل مجال، وانتهاء بأزمة الأقليات والجاليات المسلمة في شتى بقاع العالم، خاصة تلك المتصلة منها بالفكر والسلوك قبل الخطاب، وانتهاء بما تبينه مثل هذه الأحداث باستمرار من عدم تمكن الطرف الأهم في هذه الأزمة من «سلطة المعرفة»، (بعبارة الفيلسوف البريطاني فرانسيس بيكون) معرفة الآخر بنا في مساحات عريضة، وبمقدساتنا الدينية، وقدرته على استيعاب خصائصنا المجتمعية وهويتنا الثقافية، كأمة ذات سمات وخصائص مميزة، سواء في عالم المسلمين أو في مجتمعات المسلمين المستجدة في المهاجر المختلفة عبر العالم.

غير أن هذا ليس مجال التفصيل في تلك المشكلات التي يمكن القول: إنها تهتم هوامش القضية وتنبعث من حواشي الموضوع الأساس؛ إذ الأزمة الأجدر بالتأمل والبحث لا يمكن إلا أن تكون أزمة المسيء؛ إذ بدرت منه الإساءة، فكأن سلوكه تجاه غيره من ذوي المعتقد والهوية المغايرين تعبيراً عن مأزق داخلي يعيشه قِيَمِيًّا واجتماعيًّا، تمامًا كما تنعكس

كانت حاضرة في الأزمة بشكل واضح، حتى قبل انفجار قضية الرسوم الكاريكاتورية؛ حيث كانت «واشنطن تايمز» الليكودية تنشر حلقات تحذّر من خطر «دولة إسلامية في أوروبا» ركّزت فيها على البوسنة، فهي «كوريدور» القاعدة إلى أوروبا، والمقاتلون البوسنيون المسلمون انضموا في العراق إلى «الإرهابيين الإسلاموفاشست في حملتهم البربرية على القوات الأمريكية». مما ركّز على دور المسلمين في الخطاب والسلوك الجديد في مجتمعاتهم الأوروبية، ومجتمعاتهم الجديدة في الغرب.

خلاصات من دروس الأزمة:

وكغيره من الأحداث التي اكتنفت الفضاء الإسلامي مراراً، اندلع حادث الرسوم الدانماركية وتتابعت تداعياته وآثاره منذ (سبتمبر ٢٠٠٥) بصورة أسهب معها في تقديم التفاصيل، وسرد الأحداث والجزئيات، حتى كأن سيل هذه التفاصيل العارم منعت النفاذ -إلا قليلاً- إلى عمق الحدث وأبعاده، وغبار تلك الجزئيات الثائر حجب مسار البحث المستشرف في مراميه واستخلاص دروسه.

لقد صار الانشغال بسؤال «الكيف» عن سؤال العلة والسبب سمة في التعاطي مع كثير من الأحداث التي تمر بعالم الإسلام وأهله، ما يمنع من الاستفادة من خلاصات ودروس تلك الأحداث، وإذا صح أن يتم التساهل مع هذه السمة في القضايا الجزئية، والأحداث العابرة، فإن حدثاً بحجم وآثار وامتدادات قضية الرسوم لا ينبغي إلا أن يكون محطة توقف؛ لموقعته في سياقها على ضوء ما سبقه، وتأسيساً للاستنتاج والفهم لما يأتي بعده، حتى لا تنطفئ جذوته الفكرية، بمجرد تراجع وقائعه وتفصيله وانطفاء إثاراته العاطفية.

ولعل هذه القراءة الأولية التركيبية للحدث وآثاره تمدنا بعدد وفير من الدروس، بقدر ما تثير من الإشكالات والأسئلة التي تهتم أكثر من مجال من مجالات تفاعل القضية. بدءاً من تلك المنتصبة على

ملف التقرير - المقاومة

غير أن ذلك كله لم يكن ليحجب الدور المتعاظم للفعل الشعبي في هذه الأزمة، وما أصبح له من تأثيرات متعاظمة استطاعت في أكثر من محطة أن تؤثر بشكل مباشر على مسار الأحداث وصناعة القرارات، ناهيك عما أفرزته هذه الأحداث من نُخب شعبية فاعلة ومؤثرة تعي نبض الجماهير، وتلتحم بها وتتفاعل معها، في نفس الوقت الذي تمارس فيه دورها في التوجيه، وإبداع وسائل الضغط والمقاومة الجماهيرية السلمية، بل وتحمل مسؤولية موقعها في

أدواء الجسد الداخلية، طفحًا جلديًا، وآلامًا وحمى، أو كما تتجلى الاضطرابات النفسية في مشكلات سلوكية تجاه النفس أو الغير.

وهذه موضوعات تقتضي التنويه؛ نظرًا للمواقف الصادرة عن بعض الكاتبين الذين يُفترض فيهم أنهم يمثلون المعتدى عليهم، فقد سارع كثير منهم بَعْد اندلاع حملة الاحتجاج وانطلاق «فعاليات النصر» بعد أن أُجهضت كل المساعي السابقة لاحتواء الأزمة بالقنوات الدبلوماسية والقانونية، سارعوا بعد أسبوع



القيادة الشعبية لحملة النصر، كما وقع مثلاً عندما رفع متظاهرون مسلمون في لندن يوم الجمعة الأول من شهر فبراير ٢٠٠٦ لافتات تُحَرِّض على قتل مَنْ يُسَبِّحُ نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، فطالب الكثيرون -بمن فيهم بعض زعماء الجالية الإسلامية في بريطانيا- بتقديم هؤلاء إلى المحاكمة.

ويبدو أنه ليس من خيار آخر لمواجهة كمّ التحديات والأزمات المتلاحقة التي تمسّ المسلمين وغيرهم في عالم اليوم، من قوى المادية اللإنسانية، والاستبداد والطغيان والهيمنة المتعددة الأوجه، سوى مسار الفعل الشعبي العام والمؤثر، والذي يستمد قوته وثباته واستمراره أساسًا من عقيدة الإنسان وقِيَمِهِ وإرادته، وهي أشد عناصر التأثير في ميزان التدافع بين البشر.

واحد إلى مساواة المسيء أولاً بمن رفض الإساءة واحتج عليها.

ثم ما لبثت بعض التحليلات أن مالت -بمجرد ما بدت بعض أخطاء ردود الفعل- إلى التركيز على «أزمة المعترضين» على الرسوم ومحاولة الإساءة، ولعلهم عند هذا المستوى تحديداً كانوا قد تماهوا تماماً مع كثير من المواقف الغربية، التي انبعثت منها رائحة الاستهانة والاحتقار لكل من عبّر عن اعتراضه على ما اعتبر إساءة عميقة له ولمعتقده.

وواحد من الأمثلة المعبرة ببلاغة عن هذا الاتجاه الكريه في تعالیه وتعالمه، كان رسماً كاريكاتورياً آخر نشرته الصحافة الفرنسية بعد اندلاع الاحتجاجات، يعيد تصوير شخص النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وهو يقول بحسرة هذه المرة: «إنه للأسف محبوب من قبل أغبياء!»

معلومات إضافية

تطورات أزمة الرسوم:

أوصت وزارة الخارجية الدانماركية رعاياها بعدم زيارة ١٤ دولة عربية وإسلامية، بعد استهداف سفارة الدانمارك في دمشق، وقنصليتها بيروت، وقالت وزارة الخارجية في بيان: إن «التطورات تُظهر أن الأزمة يمكن أن تمتد إلى دول أخرى».

وهذه الدول هي: المغرب والجزائر وتونس، وليبيا ومصر والسودان وعمان، والإمارات العربية المتحدة وقطر والبحرين والأردن، وإيران وباكستان وأفغانستان.

بيروت:

دعت الدانمارك رعاياها في لبنان إلى مغادرته في أعقاب إحراق قنصليتها في بيروت على خلفية نشر إحدى صحفها رسوماً مسيئة للرسول عليه الصلاة والسلام.

وجاء هذا الإجراء بعد أن أحرق متظاهرون غاضبون مبنى القنصلية الدانماركية ببيروت، وسيارات تابعة للجيش اللبناني أثناء مسيرة تحولت إلى أعمال شغب؛ بعد إطلاق الشرطة الرصاص الحي والقنابل المسيلة للدموع لتفريق المتظاهرين.

واقترح آلاف المتظاهرين القنصلية بعد أن اجتازوا قوات الأمن التي حاولت منعهم من الاقتراب من مقر مكتب القنصلية الدانماركية في الأشرفية بشرق العاصمة بيروت.

كما جاب المتظاهرون عددًا من الشوارع، وهم في طريقهم لمبنى القنصلية، وحطموا بعض الممتلكات وواجهات العديد من المحلات التجارية وعددًا من سيارات المواطنين.

ووصف وزير العدل شارل رزق ما حدث بأنه «أمر جنوني وتواطؤ مع ناشري الرسوم الكاريكاتورية»، كما أدت هذه الأحداث إلى استقالة وزير الداخلية اللبناني من منصبه.

دمشق:

كان آلاف المتظاهرين المحتجين على نشر رسوم كاريكاتورية مسيئة للنبي محمد عليه الصلاة والسلام قد اقتحموا سفارتي الدانمارك والنرويج في دمشق حيث أضرما فيهما النار.

وأحرق المتظاهرون كل المبنى الذي يضم أيضًا سفارتي شيلي والسويد، وهو مؤلف من ثلاثة طوابق.

تنديد أوروبي:

ونددت الدانمارك والنرويج بسورية لما وصفته بعدم وفائها بالتزاماتها الدولية، وقالت الدولتان: إن إخفاق سورية في اتخاذ الإجراءات اللازمة هو الذي سمح بتعرض سفارتي البلدين في دمشق لأعمال العنف، ووصفتنا ذلك الإخفاق بأنه تصرف غير مقبول، وحثتا رعاياهما على مغادرة سورية.

ونددت المفوضية الأوروبية بأعمال الشغب والعنف التي شهدتها لبنان وسوريا، وشددت يوهانس ليتنبرغ المتحدث باسم المفوضية على التفهم الكامل لغضب مسلمي العالم، لكنها أشارت إلى أنه لا مبرر أبداً لأعمال العنف التي صاحبت تلك الاحتجاجات في اليومين الماضيين.

وقالت ليتنبرغ: إن المطلوب حالياً هو الحوار وتبادل الأفكار على أسس سلمية للتوصل إلى تفاهم ببناء.

وكان رئيس وزراء الدانمارك فوج راسموسين قد قال: إنه لن يعتذر أبداً عن نشر صحيفة يلاندر بوستن الدانماركية للرسم المسيئة للنبي محمد (عليه الصلاة والسلام) لكنه أوضح أنه «مستاء» من الإهانة التي نجمت عن نشر الرسوم.

وقال وزير الخارجية الدانماركي بير ستينغ مولر: إن بلاده لم ترتكب أي كفر في موضوع نشر الصور، وإن على الدول العربية إبلاغ شعوبها بما أسماه الوجهة الصحيحة، مضيفاً أنها مطالبة أيضاً بضمان أمن السفارات.

وأكد مولر أنه بعث رسالة إلى نظرائه العرب دعاهم فيها للحوار، معتبراً أن الحوار ونبذ العنف هو الحل الوحيد للأزمة.

لا توجد أعذار:

حمّل الرئيس الأمريكي جورج بوش الحكومة السورية مسؤولية إحراق سفارتي الدانمارك والنرويج في العاصمة السورية احتجاجاً على الصور المسيئة للنبي الكريم، قائلاً: إن مثل هذا العنف لا يمكن أن يحدث دون موافقة الحكومة.

وقال المتحدث باسم البيت الأبيض: إنه لا توجد أعذار يمكن قبولها بشأن الأضرار التي لحقت بالبعثات الدبلوماسية. وأضاف المتحدث «أن واشنطن تدين بأشد العبارات الضرر الذي لحق بالسفارتين الدانماركية والنرويجية، والذي امتد أيضاً لسفارتي شيلي والسويد».

وقال المتحدث: «إن فشل سورية في توفير الحماية للسفارات في ضوء توفر معلومات عن أعمال عنف مخطط لها لا يمكن قبول أي أعذار بشأنه».

واتهمت وزيرة الخارجية الأمريكية كونداليزا رايس إيران وسوريا بالتحريض على أعمال العنف المعادية للغرب، التي جرت إثر نشر الرسوم المسيئة للرسول الكريم.

في المقابل أعربت الأمم المتحدة ومنظمة المؤتمر الإسلامي والاتحاد الأوروبي عن القلق العميق من الغضب المنتشر في العالم الإسلامي، ودعت المنظمات الثلاث إلى ضبط النفس وإلى الحوار.

تضامن مع الدانمارك:

وعبرت المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل عن رفضها ما أسمته الأعمال العنيفة للمسلمين الغاضبين من نشر الرسوم المسيئة.

ورفضت ميركل تدخل الحكومة والدولة لمنع الصحف الألمانية من إعادة نشر الرسوم؛ عملاً بما أسمته حرية التعبير، وعبرت المستشارة الألمانية عن إحساسها بأن هذا الموقف هو موقف جميع الدول الأعضاء بالاتحاد الأوروبي، وأضافت يجب أن «لا تشعر الدانمارك بأنها معزولة»، في إشارة إلى المقاطعة التي تتعرض لها منتجات هذه الدولة من قبل المسلمين في العالم.

وحث وزير الخارجية الألماني فرانك فالتر شتاينماير على احترام حرية الصحافة وحرية الدين في آن واحد، وقال: «يجب أن نُحول دون الوصول إلى موقف يعتقد فيه الناس أنه يتحتم علينا الاختيار بين هاتين الحريتين».

غزة:

في غزة قام عشرات الفلسطينيين باقتحام مقر الاتحاد الأوروبي، ورشقوا المقر بالحجارة؛ احتجاجاً على الرسوم الكاريكاتورية.

جاكرتا:

وفي إندونيسيا اقتحم المتظاهرون مقر السفارة الدانماركية، وأحرقوا العلم الدانماركي، فيما أدان الرئيس الإندونيسي سوسيلو بامبانغ يودونو الرسوم المسيئة، لكنه دعا الإندونيسيين للهدوء.

وطالب المتظاهرون حكومات بلادهم بقطع العلاقات الدبلوماسية مع الدانمارك والدول الأوروبية المعنية، ودعوا لمواصلة المقاطعة الاقتصادية للمنتجات الدانماركية.

العواصم الأوروبية:

وامتدت حالة الغضب التي تسود المسلمين إلى العواصم الأوروبية، وفي الدانمارك تظاهر نحو

ملف التقرير - المقاومة

مائة من اليسار احتجاجاً على موقف اليمين المتطرف الذي أيد نشر الرسوم المسيئة. وقال المتظاهرون: إنهم جاءوا ليقولوا: إنهم ضد المظاهر العنصرية ضد مسلمي الدانمارك والعالم. وفي لندن خرج مئات المتظاهرين تنديداً بالرسوم المسيئة، وأحرقوا العلم الدانماركي ورشقوا السفارة الدانماركية بالبيض، كما عبّر المسلمون في فرنسا عن استيائهم من الإساءة التي تضمنتها الرسوم الكاريكاتورية.

الفاتيكان:

أعلن الفاتيكان أن الحق في حرية التعبير لا يشمل الحق في إهانة المعتقدات الدينية.

تداول مرفوض:

انتقد رئيس الوزراء البولندي كازيميرس مارسيكيويتس صحيفة أعادت نشر الرسوم المسيئة وقال: إن ما نشرته صحيفة «ريزكزبوسوليتا» كان بمثابة تطاول على المسلمين وجميع الداعين إلى التسامح الديني.

وأضاف مارسيكيويتس أن الصحيفة تجاوزت حدود حرية التعبير، وأن وسائل الإعلام لا يحق لها إثارة الكراهية أو نشر العداة.

وأدانت رئيسة الحكومة النيوزيلندية هيلن كلارك قيام اثنتين من صحف بلادها بنشر الرسوم وقالت: إن ذلك يمكن أن يُعرّض بلادها لعقوبات ومقاطعة اقتصادية.

وأعلنت كبرى الصحف الأسترالية من بينها صحف «ديلي تلغراف» و«هيرالد صن» و«سيدني مورنينغ» أنها لا تعتزم نشر الرسوم الكاريكاتورية للنبي الكريم.

وقال رئيس تحرير ديلي تلغراف: إنه لن يكون من الحكمة نشر تلك الرسوم؛ نظراً لأعمال العنف التي اندلعت مؤخراً بين أستراليين ولبنانيين في أحد شواطئ سدني.

مراحل تطور أزمة الرسوم المسيئة للرسول ﷺ:

صحيفة يولاندز بوستن الدانماركية:

* في ٣٠ / ٩ / ٢٠٠٥ نشرت صحيفة يولاندز بوستن المحافظة الأوسع انتشاراً في الدانمارك تحت عنوان «وجوه محمد» ١٢ رسماً كاريكاتورياً للنبي محمد عليه الصلاة والسلام. وطالب ممثلو المسلمين في الدانمارك بسحب هذه الرسوم والاعتذار رسمياً عن نشرها.

* وفي ١٢ / ١٠ / ٢٠٠٥: رئيس تحرير الصحيفة الدانماركية يعلن تلقيه تهديدات بالقتل، والصحيفة توظف حُرّاًساً لحماية صحفييها وهيئة تحريرها في كوبنهاغن.

«مغازينت» المجلة المسيحية النرويجية:

في ١٠ / ١ / ٢٠٠٦ نشرت بدورها المجلة المسيحية النرويجية «مغازينت» - التي توزع على نطاق خاص وباسم «حرية التعبير» - الرسوم بترخيص من صحيفة «يلاندز بوستن» الدانماركية. وأعلن رئيس تحرير المجلة النرويجية بدوره بعد يومين أنه تلقى تهديدات بالقتل.

صحيفة فرانس سوار الفرنسية:

وفي ١ / ٢ / ٢٠٠٦ نشرت العديد من الصحف الأوروبية، وبينها صحيفة «فرانس سوار» الفرنسية باسم حرية التعبير الرسوم. ومنعت المغرب وتونس توزيع عدد «فرانس سوار» الذي نشرت فيه الرسوم، كما أقيل مدير تحرير الصحيفة.

صحيفة لوموند الفرنسية:

في ٢ / ٢ / ٢٠٠٦ نشرت صحيفة لوموند الفرنسية الشهيرة رسمًا للنبي الكريم احتل نصف مساحة صفحتها الأولى تحت توقيع رسام الصحيفة بلانتو، كما نشرت افتتاحية بعنوان رسوم كاريكاتورية حرة في نفس العدد.

* وصور بلانتو في رسمه وجه النبي محمد، مستخدمًا بدل الخطوط جملة مكتوبة بخط اليد في كل الاتجاهات يجب أن لا أرسم محمدًا، فيما ذكرت الصحيفة في افتتاحيتها أنه يمكن للمسلم أن يشعر بالصدمة بسبب رسم الرسول؛ غير أنه لا يمكن للديمقراطية إنشاء شرطة للرأي على حساب الاستهانة بحقوق الإنسان.

صحيفة ماجيار هيرلاب المجرية:

وفي نفس التاريخ ٢ / ٢ / ٢٠٠٦ نشرت صحيفة «ماجيار هيرلاب» المجرية رسمًا ساخرًا يظهر فيه إمام يأمر مفجرين انتحاريين بالتوقف؛ لأن الجنة نفذ ما لديها من الحور العين؛ على حد زعم الصحيفة.

صحيفة ليبراسيون الفرنسية:

في ٣ / ٢ / ٢٠٠٦ خصّصت صحيفة ليبراسيون الفرنسية ست صفحات لقضية الرسوم الكاريكاتورية للنبي الكريم، وخصّصت رسمين اثنين من نفس الرسوم التي نشرتها الصحيفة الدانماركية، وهو ما ينطبق على أسبوعية «شارلي إبدو» التي قررت إعادة نفس الرسوم في عددها القادم.

صحيفة شيحان الأردنية:

في ٣ / ٢ / ٢٠٠٦ أعادت صحيفة شيحان الأردنية نشر الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أصدر المدعي العام قرارًا باعتقال رئيس تحرير الصحيفة الأسبوعية جهاد المؤمني، كما أمر بفتح تحقيق مع المسؤولين في صحيفة «المحور» الأسبوعية؛ لقيامها بنشر رسوم مشابهة الشهر الماضي.

صحيفة فلادلفيا أنكورير الأمريكية:

في ٤ / ٢ / ٢٠٠٦ أعادت بعض الصحف الأمريكية نشر نفس الرسوم المسيئة، ومن أهمها صحيفة فلادلفيا أنكورير، فيما امتنعت صحف من بينها نيويورك تايمز، وواشنطن بوست، ويو إس إيه توداي عن نشرها.

صحيفة ساراواك تريبيون الماليزية:

في ٦ / ٢ / ٢٠٠٦ قدم رئيس صحيفة ساراواك تريبيون الماليزية استقالته بعد إعادة الصحيفة لنشر الرسوم المثيرة والمسيئة للرسول الكريم.

صحف ووسائل أوروبية أخرى:

كما نشرت عدة صحف أوروبية أخرى من بينها «إيه بي سي» و«بيروديكو دو قطالونيا» الأسبانياتان وصحيفة دي فيلت الألمانية بعضًا من تلك الرسوم، وفي نيوزيلندا نشرت صحف تلك الرسوم من أشهرها صحيفة دو مينيون بوست الشهيرة.

وفي ٢ / ٢ / ٢٠٠٦ انضم تلفزيون «بي بي سي» لوسائل الإعلام التي نشرت الرسوم المسيئة، وبررت «بي بي سي» الإجراء الذي اتخذته برغبتها في مساعدة المشاهدين على فهم المشاعر القوية التي أثارها تلك الرسوم في العالم.

وزارة الإعلام الكويتية، إدارة رصد الأخبار،

www.news.gov.kw/files/documents / ٦ - دانها.ك. doc